الوقفة الخامسة

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾. (القصص).

❁ ❁ ❁

آية من كتاب الله تعالى تُعَدُّ بمثابة ورقة عمل، تحدد في مجملها ملامح قضية اجتماعية هامة، وتقدِّم لنا حلاً، لا أكون مبالغًا إن قلت لثلاثة أرباع مشاكل الأمة، إن لم يكن لجميع مشاكلها.

أما عن الآية فهي الآية رقم (٢٣) من سورة القصص.

وأما السياق، فقد جاءت ضمن أحداث قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في بداية حياته ورحلته في تبليغ دعوة ربه إلى فرعون طاغية مصر.

۞ وقفة مع الحدث:

ولنبدأ أولاً بالحَدَث الذي تسوقه لنا الآية الكريمة:

فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خرج من مصر فرارًا ممن يريدون قتله، ثأرًا لقتيلهم الذي قتله موسى، مرَّ في طريقه على (مَدْيَنَ) وهي قرية تقع بين الحجاز والشام، فإذا به يمرُّ على بئر ماء بهذه القرية، وإذا هو يرى جمعًا كبيرًا من الرِّعاء وأصحاب الماشية والأغنام يتزاحمون على هذا البئر لسقي مواشيهم وأغنامهم، لكنه قد لفت انتباهه وقوف فتاتين بعيدًا عن هؤلاء الناس، ومعهما غنماتهما تريدان سقيها، لكنهما لا تريدان مزاحمة الناس، فهما تنتظران حتي ينفضَّ الآخرون عن البئر. هذا ما أجابت به الفتاتان على موسى لما سألهما: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ يعني ما شأنكما تقفان بعيدًا هكذا؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾.

فما كان من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن تحركت فيه شهامة الرجولة، ونخوة الإسلام، وغَيْرَةُ الإيمان، فسقَى للفتاتين أغنامهما، ثم انصرف عنهما.

عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الأَوْدِيِّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ. قَالَ: فَلَمَّا فَرَغُوا أَعَادُوا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبِئْرِ، وَلا يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلا عَشَرَةُ رِجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتَاهُ، فَأَتَى الْحَجَرَ فَرَفَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِ إِلا ذَنُوبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوِيَتِ الغنم."[١]

❁ أهم الدلالات:

هذا هو الحدث. لكنه حدثٌ يحمل بين طياته دلالات هامة:

✓ الدلالة الأولى:

فإن الآية تشير في مجملها إلى قضية هامة من قضايا المجتمع، ألا وهي قضية عمل المرأة. هذه القضية التي تناولتها الأقلام في عصرنا بين المؤيد والمعارض، وبين المُنكِرِ والمُقِرِّ. نجد أن الآية التي بين أيدينا وضعت الخط الفاصل في معترك الخلاف بين هؤلاء وهؤلاء، وأصدرت حكمها الوسط والمعتدل في تلك القضية بهذه الكلمات الموجزة البليغة في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

فهذه العبارة من الفتاتين قد صرَّحت بهذا الحكم، وأقرَّت بجوازه، لكنها في نفس الوقت وضعت الضوابط، وحدَّدت

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٠٤)، وقال ابن كثير: إسناد صحيح.

الشروط في جزءين من العبارة ذاتها :

الجزء الأول: في قول الفتاتين: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾

وهذا هو الضابط الأول لعمل المرأة، وهو عدم مزاحمة الناس خاصة الرجال على اعتبار أن هذه الأمة من الناس التي ذكرها القرآن الكريم كانوا رجالاً أو أغلبهم رجال.

فالمرأة المسلمة لا تزاحم الرجال، ولا تخالط الرجال في العمل، لان المرأة معروفة بهذا الحياء الجبلي -فضلاً عن أنه خلق دينيٌّ- وهذا الحياء يمنع المرأة من مخالطة الرجال، أو تزاحمهم. ولهذا انتظرت ابنتا شعيب حتى ينتهي الرجال من سقياهم.

الجزء الثاني: هو في قولهما : ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾.

وهذا هو الضابط الثاني. ألا تخرج المرأة إلى ميدان العمل خارج البيت، وتسعى للحصول على الرزق إلا إذا اضُطرَّت هي لذلك، إما لعدم وجود العائل وهو رب الأسرة المسئول، أو لعجزه عن هذا السعي. فابنتا شعيب لم تخرجا للعمل إلا بسبب عجز الأب عن السعي وعدم قدرته.

✓ **الدلالة الثانية:**

إن المتأمِّل في قول الفتاتين في هذه العبارة بجزئيها يَلْمَحُ فِراسة وذكاء هاتين الفتاتين مع فصاحتهما، حيث إنهما

أجابتا على سؤال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي لا يتجاوز كلمة واحدة هي ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ بإجابة تحمل هذا البيان التفصيلي، وكأنهما أحسَّتا بما يدور في خلد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعقله من تساؤلات كثيرة قد لخَّصَتْها هذه الكلمة الواحدة. فكأنه يريد أن يقول لهما: ما الذي أخرجكما للعمل؟ وما الذي جعلكما تنتظران بعيدًا عن الناس هكذا؟ فجاء جواب الفتاتين كافيًا شافيًا بما يدور في نفس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من تساؤلات، وفيه وضوح تام دون تنطُّع أو تقعُّر في القول، وحتى يغلق باب المناقشة تمامًا في القضية، وبهذا يُسدُّ باب من أبواب الفتنة أمام الشيطان بإنهاء الحوار وإيجاز الكلام.

هذا. وكأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شعر بما عليه هاتان الفتاتان من الأدب والحياء وعلوِّ القدر، فدفعه ذلك إلى بذل هذا المعروف لهما، فرفع لهما غطاء البئر الثقيل، وسقَى لهما.

❁ ❁ ❁

وهكذا تلخِّص هذه الآية الكريمة بهذا الحوار الموجز بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وابنتي شعيب قضية عمل المرأة، وتردُّ في فصاحة وصراحة على هؤلاء الذين يريدون إقحام المرأة في ميدان العمل والكَدِّ والسعي خارج نطاق البيت بغير عذر، أو

بأعذار واهية قد اختلقوها هم لأنفسهم لمَّا شدَّدوا على أنفسهم في حياتهم ومعاشهم، متجاهلين بذلك قول اللّٰه تعالَى للنساء ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ومُعرِضين عنه.

فمنذ أن تركت المرأة بيتها الذي هو موطن عملها الأصلي ومركز عزِّها، وحصن شرفها، لتبحث عن عمل آخر أو لتزاحم الرجال في ميدان الكدِّ والسعي اختل ميزان الحياة، وتعقَّدت الأمور، وفُتِحَ على الأمة أوسع باب من أبواب الفتنة والفساد، فما من أزمة تتعرض لها الأمة الآن، اقتصادية كانت أو اجتماعية أو أخلاقية، بل وسياسية إلا كان من أهم أسبابها خروج المرأة من بيتها، لأنه تدخلٌ في قانون رب العالمين، وتغيير في نظام منهجه القويم، الذي قضى سبحانه وتعالى فيه أن المرأة مكانها بيتها، وأن الرجل هو صاحب القوامة. وصاحب القوامة منوطٌ به الكَدُّ والسعي والعناء والتعب من أجل تحصيل لقمة عيش كريمة له ولمن استرعاه اللّٰه تعالَى عليهم، فقال تعالَى مخاطبا آدم الأول أبا البشر: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ (طه). فكان الخروج من الجنة لكل من آدم وحواء، والشقاء في دار الدنيا منسوب لآدم وحده ﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾ وليس فتشقَيا.

وليس معنى هذا أن المرأة بقرارها في بيتها ستكون في دَعَةٍ وراحة، ولن تعاني مشقة. كلاَّ. فقد أهلَّها رب العالمين لمهمة قد تكون أشدَّ عناءً، وأثقلَ حِملاً، ألا وهي مهمة التربية والتعليم، مهمة تربية أولادها، بعد معاناة ومكابدة متاعب الحمل والولادة. فمهمة تربية الأبناء والقيام على شئونهم ليس بالأمر الهَيِّن. وإنما تحتاج إلى مؤهِّلات خاصة قد لا توجد إلا في المرأة وهي الأم. يضاف إلى ذلك ما تقوم به المرأة من تهيئة بيتها لاستقبال زوجها، فتضفي على البيت جوًّا من الهدوء والراحة والجمال، مع البسمة الرقيقة والوجه البشوش والكلمة الرقيقة؛ ما يجعل زوجها ينسَى متاعب السعي والكَدِّ خارج البيت في يومه، ليواصل العمل والسعي في يوم جديد. هذه هي مهمة المرأة، ونجاحها في هذا الميدان نجاح في كل جوانب الحياة.

❁ ❁ ❁

ولما تركت المرأة بيتها، وخرجت ملبِّية بذلك دعوة أعداء الأمة الذين يريدون أن يقحموها في مجالات لم تُهيَّأ لها، ولم تخلق من أجلها، ويُفرِغوا بذلك بيوت المسلمين من أهم رسالة، وهي رسالة التربية، ورسالة صناعة الجيل المسلم، القادر على حمل رسالة الإسلام إلى العالم كله. لمَّا فعلت ذلك تركت أبناءها دون رعاية. وتركتهم لأحضان مربِّيات لن يكنَّ بحال

بديلات عن الأم.. الأم بحنانها وعطفها ، وبرحمتها الجِبليَّة التي فُطِرت عليها نحو أبنائها.

❁ ❁ ❁

تركت الأم بيتها ، وخرجت لتزاحم الرجال وتشاركهم في أعمالهم لتثبت للعالم - كما يقول دعاة التحرر - أنها قادرة على إثبات وجودها ، وأنها قد تكون أقدر من الرجل في تولي أيِّ مسئولية تُكلَّف بها. وهذه الدعوى الكاذبة من هؤلاء المتمرِّدين على شريعة رب العالمين قد أوقعت الأمة في أزمات ومخاطر لا حصر لها.

فأزمة البطالة التي تعاني منها الأمة الآن مرجعها الأول هو خروج المرأة إلى ميدان عمل الرجال. فاحتلت بذلك المرأة أماكن الرجال. فأصبحوا لا عمل لهم. وبالتالي صعب عليهم أن يتكسَّبوا ليتزوَّجوا ويفتحوا بيوتًا ، ويقيموا أسرًا. وتستقرَّ حياتهم.

كما نشأت أزمات جديدة. كأزمة التشرد ، وما يسمى (البَلْطَجَة). حيث لم يجد هؤلاء الرجال، وهؤلاء الشباب ما يفرغون فيه طاقاتهم من خلال عمل حلال، فراحوا يتسكَّعون في كل مكان، وصاروا مدمني مخدرات، وسارقين وقطاع طرق، ومتسوِّلين .. ثم قل ماشئت بعد ذلك.

❁ ❁ ❁

خرجت المرأة من بيتها فأتبعها الشيطان، فتجرَّدت من الحياء، فتبرجت. واستجابت لدعاة الفتنة والمدنية الزائفة، فامتلأت الشوارع، وامتلأت المؤسَّسات الحكومية وغير الحكومية بالفتن والشهوات، وانتُهِكَت الأعراض، وظهرت الموبقات، وانتشرت الفواحش من زنًا معلَنٍ وزنًا متسترٍ خلف ستار مزيف اسمه الزواج العرفي، وقع كل ذلك، وأكثر من ذلك، ولو أطلقنا للألسنة أن تقول، وأطلقنا للأقلام أن تكتب. لقالت الألسنة ما تتلوث به آذان السامعين، ولاسودت الأوراق والصحف بما تصفه أقلام الواصفين من عري وسفور. وانحلال وفجور، وفساد للأخلاق، وضياع للبنين والبنات بسبب تعطيل قانون رب العالمين. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

❁ ❁ ❁

خرجت المرأة من بيتها للعمل، ونازعت الرجال في أعمالهم وتصدرت جميع مجالات العمل، فتعالت بذلك على الرجال وسُحِب بساط القوامة للأسرة من تحت الرجال. هذه القوامة التي أعطاها ربُّ العزة جلَّ وعلا للرجل، لما وضعه فيه من مؤهلات. ولما يعلم فيه من قدرات وطاقات تمكنه من القيام بمهام هذه القوامة. قال تعالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا

فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (النساء).

هكذا حدَّد ربنا -سبحانه وتعالى- حدود مسئولية كل من الرجل والمرأة، وصرَّح تصريحاً لا يقبل التأويل ولا المراوغة بأن للرجال القوامة والرئاسة والقيادة. أما المرأة فمرءوسة ومُقادَةٌ، وبيَّن فضل الرجال على النساء بقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وبقوله في موضع آخر ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة:٢٢٨)، فلماذا التنطُّع إذن؟ ولماذا الحَرَج والضيق؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك).

❁ ❁ ❁

ثم إن هذه القوامة من الرجل على المرأة ليست سيفاً مُسلَطًا على عنقها، تُستَذَلُّ به وتُستَعبَدُ، وليست سلاح كِبْرٍ أو غطرسة للرجل تُهان به المرأة، وإنما القوامة عبء ومسئولية تتعلق به حاجات الاسرة ومتطلبات الحياة، من إنفاق ومن رعاية ومن حماية، مع ما يحمله الرجل من مسئوليات الدين الأخرى،

كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله. هذه هي تبعات القوامة. فهل تقدر المرأة على هذا كله؟.

ومع ذلك فدور المرأة يُعَدُّ تدعيمًا ومؤازَرَةً للرجل في أداء مهام هذه القوامة. لقد هيمنت المرأة على أخص مهام الرجال في القضاء، وفي المجال الاقتصادي والإجتماعي. بل وفي المجال السياسي والعسكري... وخُيِّلَ لها أنها صارت كالرجل سواء بسواء، ونطق الشيطان على لسانها في هذا الزمان الذي صار من حق كل واحد أن يتكلم فيه بما شاء، لتطالب بمساواتها بالرجل في كل شيء!!.. فما المانع أن تساويه في الميراث، وفي أمور الزواج.. بل وفي كل شيء؟! أليست قادرة على مزاولة وممارسة كل المهام والمسئوليات؟ وبهذا تملَّصت المرأة وانسلخت من ثوب حواء!! نسيت أنها حواء. نسيت أنها خلقت من ضلع أعوج، ولا ندرى ماذا بعد؟ وإلى الله المشتكى.

❁ ❁ ❁

قد يقول قائل: ولماذا هذه الهجمة الشديدة على المرأة وعلى خروجها؟ ألم تكن تخرج المرأة في الغزوات تطبِّب المرضى، وتُسعِف الجرحى؟

فأقول: هذه أدلة المجيزين المتساهلين. لكنها أدلة كما قال القائل أشبه بـ (شماعات ملابس) تُعلَّق عليها قوانين ودساتير

باطلة، لأن الاستدلال بها في غير محله. فهل هذه مسوِّغات لما نحن فيه من هذا الانحلال؟ شتَّان ما بين زمن الغزوات وزمن النزوات!!

لكن إذا أردنا الاستدلال الصحيح، وأخلصنا لله القصد، قلنا إنه لا مانع من الاستعانة بالمرأة في أمور محددة، أو في أضيق الأمور. فلا مانع مثلاً أن تعمل المرأة في مجالات نسائية فقط: كطبيبة تطبِّب النساء، أو كمعلِّمة تعلم النساء... ولو حصرنا هذه الأعمال لوجدناها محدودة ولكانت أنفع وأكثر واقعية.

❁ ❁ ❁

وبعد فقد كانت هذه وقفة تأملية لهذا الحوار الهادئ بين موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع ابنتي شعيب، ولا يزال بين كلمات الآية وحروفها من أسرار البيان الكثير والكثير من المعاني والأسرار.

اسأل الله تعالى أن يبصرنا بها، وأن يرزقنا العمل بما فيها. إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

❁ ❁ ❁

obeikandi.com